(المدى) على موائد إفطار بصرية

عندما كان محمد الطوبجي يملأ مدفعه بالخرق والبارود

عبد الحسين الغراوي
تصوير / أحمد المالكي

المسرات الرمضانية الحالية لا تختلف كثيراً عن المسرات القديمة بالنسبة للحياة العائلية، لكن التلفزيون والفضائيات أضعفتا طابعها الجمعي. الذاكرة الجمعية ما زالت تحتفظ بألق رمضانيات (أيام زمان)، حتى وهي تستسلم للضخ الإعلامي المليء بالمسلسلات المعدة لتغطية هذا الشهر الفضيل.

موائد الإفطار العائلية العامرة ظلت كما كانت، فهي تجمع العائلة كلها، ولعل حكايات (أيام زمان) تحضر على هذه الموائد كذخيرة حية تنقل من الكبار إلى الصغار. (المدى) حضرت بعض موائد الإفطار العائلية في البصرة، في رغبة لاستذكار الماضي.

زرنا عائلة المهندس الزراعي رمزي إبراهيم في داره في حي الجنينة على مائدة رمضانية بصرية مباركة. ليستذكر بعض ما احتفظت به ذاكرته من أيام رمضان في الفاو حيث كان يعيش هناك مع والده الكابتن المرحوم إبراهيم الشعبان.

سفرة فاوية

قال: الفاو مدينة بحرية وميناء نفطي مهم.. والناس كانوا هنا وخاصة في شهر رمضان كعائلة واحدة تجتمع على (سفرة) أو بساط واحد. في رمضان لا فرق بين الغني والفقير فكلاهما يقف أمام رحمة وبركات ربه. وفي الفاو يحبون (الشوربة) بعد الفطور مباشرة والتشريب وأنواع الأسماك البحرية التي يتم اصطيادها من مياهنا الإقليمية.. ويضيف رمزي الشعبان:

- الناس تجمعهم سفرة واحدة وأحاديث رمضانية لها قدسية، وللدارسين والشاي وشرب نومي بصرة يعتبر من مكملات المائدة البصرية الأساسية إضافة إلى الأطعمة الأخرى.. وللطرشي مع الفطور أو السحور مذاقه الطيب وهو من صنع محلي.. وبعد الإفطار يتوزع الناس، بعضهم يذهب إلى الجامع أو المسجد لقراءة القرآن والتراويح والبعض الآخر يقضي سويعات الليل منشغلاً في لعب الدومينو أو الطاولي في المقهى أو (المحيبس) وهي لعبة شعبية محببة.

رمضان وساحة أم البروم

وفي جلستنا الرمضانية البصرية مع الحاج زرزور مهدي / تولد ١٩٢٣ تحدث لـ(المدى) عن رمضان قبل سبعة عقود حيث أشار:

- البصرة (أيام زمان) كانت مدينة طيبة بحجم القلب وأناسها يتناولون زادهم في رمضان مجتمعين حول سفرة خوصية واحدة. والأطعمة متنوعة وكانت رخيصة. الألفة والتعاون والإحسان إلى الفقراء اليتامى كانت شيمة وكرم البصريين. وكانت كل عائلة بصرية ترسل قبل مدفع الإفطار صينية مليئة بالأطعمة (الشوربة) (التشريب) (اللقيمات) (الكاستر) (المحلبي) (الباجة) والخضار وأرغفة الخبز إلى الجوامع والمساجد كفطور للفقراء، ويؤكد الحاج زرزور صاحب الذاكرة الطرية إن العوائل الثرية منها بيت الملاك كانوا

يعدون الطعام عام ١٩٣٩ في (البروم) أي القدور في حديقة غازي، وسميت اليوم ساحة (ام البروم) أي أم القدور حيث كان يطبخ للفقراء الطعام. وكانت البصرة ايام الثلاثينيات بلا كهرباء وإنما هناك أعمدة تعلق عليها الفوانيس النفطية التي يقوم بإشعالها عامل يدور لإشعالها بدراجته. ويعيد لنا العم زرزور رمضانيات تلك الأيام الخوالي الجميلة حيث يشير إلى أن هناك شخصاً بصرياً اسمه محمد لديه مدفع قديم يذهب صباحاً إلى محال الخياطين ويأتي ببقايا القماش الذي يضعه في سبطانة المدفع ويخلط مع القماش البارود ثم يحركه أكثر من مرة بعد ذلك يعد المدفع للإطلاق، ويحتل المدفع الحديقة حالياً (ساحة أم البروم) وعندما يسمع صوت المؤذن يسحب الحبل المثبت بالسبطانة، عند ذاك يطلق مدفع محمد قذيفته القماشية محدثاً دوياً، فيسارع الناس إلى تناول إفطارهم. وكان من عادة أهل البصرة التزاور بعد الإفطار وتبادل الأطعمة. وكنت أنا شخصياً أقف عند زاوية (الدربونة) بأمر من والدي، فإذا شاهدت فقيراً أو مسكيناً أذهب لأجلب له الفطور المتكون من التمر واللبن والمروقات والخبز والخضار، ونعمل ذلك لوجه الله تعالى في هذا الشهر الكريم.. شهر الإيمان والرحمة.. وبعد الأفطار يذهب الناس إلى الجوامع والمساجد للاستماع إلى خطباء الجوامع وهم يتحدثون عن أهمية هذا الشهر وفوائده الدينية والصحية والاجتماعية والإنسانية.

أما الأطفال فيتوزعون على الأزقة يلعبون العابهم الشعبية المعروفة (الحجيلة) و(الغميضة جيجو) و (الدعبل) و(الطاق) وعادة ما يلعب الأطفال، أولاداً وبناتاً معاً يجمعهم الفرح والسعادة والبراءة كما يدورون عند منتصف شهر رمضان يطلبون من أصحاب البيوت (الكركيعان) وهم ينادون (أهل السطوح تنطونه لو نروح)..

هكذا عشنا تلك السنوات الجميلة في شهر رمضان المبارك -الكل يحترم هذا الشهر الكريم. والكل يؤدي طقوسه الربانية بهيبة وجلال.. وكانت ساحة أم البروم تمتلئ بالناس حتى ساعة السحور، حيث يدور في الشوارع (ابو طبيلة) الطبال ليوقظ الناس لتناول السحور وتأدية صلاة الفجر ويعتبر (الطبالون) تقاليدهم الرمضانية هذه نذوراً يؤدونها سنوياً خلال شهر رمضان بمختلف أعمارهم... ويؤكد زرزور هذه التقاليد الرمضانية بدأت في السنوات الأخيرة تنحسر بل أن بعضها توارى عن الأنظار مطلقاً.. مثل (أبو طبيلة) لكن البصريين لا يزالون حتى يومنا هذا يمارسون طقوسهم الرمضانية بمحبة وتعاون وألفة ورحمة وتبادل الأطعمة الرمضانية التي تكثر فيها عادة التوابل الحارة الهندية.

بعد ذلك زارت (المدى) عائلة (ابو انتظار) وهو السيد غازي عبد الإمام حيث أشار إلى أن العائلة لا تتناول إفطارها متباعدة، بل هي تجتمع معاً أمام حسينية كبيرة فيها مختلف الأطعمة الرمضانية ذات النكهة الطيبة -ويوضح السيد غازي عبد الإمام -أن بعض البصريين يفضل أكل السمك في العطش لإننا صباحاً نذهب إلى صيد الأسماك وعادة ما يكون السمك مادة الإفطار الأساسية، وكنا نعتمد في موعد الإفطار على المؤذن (ملا صبري) الذي كان يؤذن من على سطح داره لعدم وجود مسجد، وعند السحور يخرج شباب المحلة ويبدأون بقرع صفائح الدهن لإيقاظ الناس، ويفيد الحاج أبو محمد كنا جميعاً في الحي أو القرية أو البستان نشعر وكأننا عائلة واحدة يجمعنا شهر رمضان. وبعد الإفطار يأتي رجل دين نجتمع حوله وهو واعظ يتحدث عن أهمية هذا الشهر الفضيل.

أم محمد حدثتنا هي الأخرى عن تقاليد هذا الشهر وقالت:

- نبدأ بتهيئة الأطعمة (المقسوم من الرزق) وأهم شيء هو الماء واللبن والتمر. والماء عادة في الحب لأنه لا توجد أيام زمان كهرباء تم نقدم عصير التمر، وكنا نعمل التمر مخلوطاً بالسمسم. ويعتبر السمك الوجبة الرمضانية الأساسية. أما الخبز فنسميه (الطابق أو خبز السياح). وأكدت الحاجة أم محمد أن شهر رمضان يوحد قلوب المسلمين لكي يساعد بعضهم البعض الآخر وفيه يطعم الغني الفقير.

أما الحاج أبو محمد فيعتبر (لعبة الجعاب) أم الألعاب الشعبية في قضاء القرنة والقرى المحيطة بها قبل أربعة عقود من القرن الماضي.. لكنه يرى أن العادات والتقاليد في رمضان هذه الأيام فقدت الكثير من خصوصياتها الشعبية باستثناء لعبة (المحيبس) التي لا يزال الشباب يمارس طقوسها.

(أبو محمد) حيث افترشت الأطعمة الرمضانية بساط العائلة التي تشكلت في جلستها على شكل دائرة توسطتها الأطعمة الرمضانية الحاج أبو محمد تحدث لـ(المدى) عن العادات والتقاليد في رمضان فقال:

الهلال ولحظة السعد

في عقود الزمن الماضي. كنا مع اقتراب الشهر نخرج إلى مكان مرتفع نحدق في السماء لعل أحدنا يبصر الهلال فنزف البشرى إلى أهل القرية. وكانت رؤية الهلال تشكل عندنا لحظة السعد حيث يطل علينا شهر رمضان حاملاً بشارته، وكنا نستعد له قبل وقت ونهيئ كل المستلزمات التي نحتاجها في الطبخ، ويضيف الحاج أبو محمد: لأننا نعيش في القرى البعيدة عن البصرة فكنا نهيئ الحطب للطبخ من جريد النخل والأشجار. وخلال أيام رمضان لا نشعر مطلقاً بالجوع أو الفطور وبعضهم يبدأ بالتشريب. ويشكل التمر في رمضان مادة غذائية أساسية لا تخلو منها أية مائدة كذلك شوربة العدس وشربت تمر هند والنومي بصرة. وهذه الأطعمة تهيأ عادة قبل ربع ساعة من مدفع الإفطار أو صوت المؤذن.. ثم تجتمع العائلة يلم شملها الأسري رمضان الكريم وهذه خصلة حميدة من خصال هذا الشهر الفضيل الذي لا يأكل فيه الصائم إفطاره قبل تفقده عائلة فقيرة محتاجة حيث يرسلون لها ما رزقهم الله من نعمه وكرمه..

ولكي تنقل (المدى) الأجواء الرمضانية الرحمانية وطبيعة التقاليد في هذا الشهر الكريم زارت قضاء القرنة بعد أن قطعت ١٠٠ كم لكي تكون بين عائلة الحاج

حدث وحديث

يوم الإجماع

كان المذياع الصغير الذي عندي هو الوسيلة الوحيدة التي املكها في يوم الاستفتاء، بعد ان تعطل جهاز التلفاز في وقت غير مناسب.فكنت خلال هذا اليوم أتنقل بين أربع موجات وقنوات عراقية. وأسجل على الورق الكثير من الملاحظات مما يقوله المواطنون، مشاعرهم وانطباعاتهم عن أحداث ذلك اليوم الموعود الذي طال انتظاره.واليكم هنا بعض الملاحظات التي سجلتها.إذاعة صوت العراق - صوت مواطن من مدينة الصدر"انه يوم بهي سوف ينقش في ذاكرة الشعب فنعم وألف نعم للدستور،لأنه دستور يعطي الإنسان إنسانيته،وانه آخر مسمار سيدق في نعش الإرهاب"

مفيد الصافي

ثم حولت الموجة الى إذاعة دار السلام- صوت مواطنة من مدينة الاعظمية " لقد كنت انوي ان أصوت بلا،بعد ان ثقفنا على هذه ولكن بعد الخطوة الرائعة التي قام بها الحزب الإسلامي،أصبح ت أكثر واقعية،فذهبت وصوت بنعم،من اجل تمرير الدستور وليس الموافقة عليه. لقد صوت انا وأخي بنعم أما والدي ووالدتي فقد صوتا بلا،ورغم هذا فقد عدنا مسرورين بالمشاركة"

بعدها حولت المذياع الى إذاعة جمهورية العراق- صوت رجل من مدينة الكاظمية " يقينا ان العراقيين مدعوون لقبول المنازلة ضد الإرهاب.ان يوم الاستفتاء عيد كبير بالنسبة لي.ونحن على مفترق طرق".وأخيرا ظهرت إذاعة أم القرى – صوت مواطن من الدورة " نحن لا نريد أي دستور.ان دستورنا هو القران،وليس دستور من جاءوا على ظهور الدبابات!! وهو دستور سوف يقسم العراق،والتصويت عليه حرام ثم حرام ثم حرام....

لقد سجلت في ذلك اليوم الكثير من هذه الردود والاقوال التي تراوحت بين النعم واللا بين الغضب والهدوء وبين العقل والتهور.ربما ان هذه الاصوات التي ظهرت قد لا تتبين أحجامها الحقيقية والتي من المؤكد انها سوف تستوضح بعد عدة أيام ولكن من النتائج البديهية التي يمكن استخلاصها هنا،انه رغم الاختلافات في الاراء ووجهات النظر ،فقد اجمع اغلب المواطنين على المشاركة في يوم الاستفتاء - مع وجود قلة لاينكر وجودها لا يزال يغلب عليها طابع الشك والتشاؤم وهي تقاطع العملية برمتها وقد تخف حدتها بعد ان ادرك متبنوها مساحة الخطأ الذي ارتكبوه من قبل ويرتكبونه.وهي اصوات اقل ما يقال عنها انها لاتمثل الغالبية العظمى من المكونات التي غابت وغيبت في الانتخابات. لقد اصبح من الواضح ان الاجماع على المشاركة هو الحل الوحيد لجميع الازمات التي تعصف بالشعب العراقي.ولقد نجح الفرقاء اخيرا في عملية التوافق الاخيرة وهو امر يحسب لهم . ان الاستفتاء على مسودة الدستور هو خطوة مهمة ومميزة نخطوها في طريق بناء دولة دستورية ديمقراطية. والاهم من كل ذلك هو تطبيق بنوده بعد الاتفاق عليها بشكل يتطابق فيه القول والعمل ،جوهرا ومضمونا وليس مجرد حبر على ورق ونحن نعلم ان علينا ان لانستعجل.

مناجم ذهب على ضفتي نهر دجلة

تحقيق وتصوير / عمار الربيعي

عند النظر إلى نهر دجلة تحديداً من جانب الرصافة وعلى ضفتي ما بين جسري "الأحرار -والشهداء" نشاهد أشخاصاً على حافة النهر وبأيديهم أوان، فكأنهم يملأونها ماء من النهر، أو كأنهم يصطادون شيئاً ما.

هذا المشهد الغريب دفعني إلى أن أذهب إليهم لأتعرف على ما يدور هناك.

التقيت بالشاب "فراس جاسم" البالغ من العمر "٢٧" عاماً وقال لي: إنني أعمل هنا منذ "١٣" سنة وأعمل على استخراج الذهب من حافة النهر!

الذهب! من يصدق هذا؟

لكنه أكد لي ذلك وأوضح: إن الذهب يأتي إلى هنا عن طريق مخلفات الصياغ التي ترمى في النهر، والتي تأتي عن طريق المجاري وهنالك من يجمع الأتربة من أمام محال الصياغ ويأتي بها إلى النهر كي يصفيها. ونقوم نحن بوضع التراب المخلوط معه الذهب والمعادن الأخرى في (الانجانة) وننزل بها إلى النهر ونبدأ بإزالة الزميج الخالي من الذهب تدريجياً حتى يتبقى لدينا الرمل المخلوط بالذهب والفضة والنحاس ونقوم بتجميعه في أكياس.

❖كم تستغرق عملية التصفية أو التجميع؟

- نجمع ما استخرجناه خلال اسبوع أو أكثر، ونذهب به إلى "الكورة" من أجل إجراء بعض العمليات عليه لعزل الذهب وبعض المعادن عن الرمل.

بعد أن شاهدت كيف يتم عملهم دلني على المكان الذي تتم فيه عملية التصفية والعزل.

ونحن واقفون على ضفة النهر قال لي انظر خلفك شاهدت تصاعد أبخرة من أعلى إحدى البنايات في شارع النهر، قال هناك تتم بقية المراحل لاستخراج الذهب.

توجهت إلى تلك البناية الواقعة في شارع النهر، التقيت صاحب الورشة "أكبر صفر سالم" البالغ من العمر (٤٣) عاماً، تحدث لنا عن بقية مراحل استخراج الذهب فقال: بعد تصفيته في النهر يؤتي بالرمل المخلوط إلى هنا، وتكون العملية الثانية الكورة، حيث يوضع الرمل المخلوط بالذهب وبقية المعادن في داخل الكورة لصهره، حتى يتحول الرمل إلى مادة "كزازية" ويتحول الذهب والفضة إلى مادة سائلة، ثم يصب في إناء على شكل قرص دائري، ثم يذهب به إلى المرحلة الثالثة وهي مرحلة العزل، إذ يوضع الذهب المخلوط في التراب كي نحصل على الذهب الخالص الخالي من أي معادن وشوائب.

الصائغ خالد أمين صاحب ورشة ومعرض تحدث لنا عن طبيعة عملهم، قال: كان لدينا سابقاً حصة من الذهب نحصل عليها من البنك المركزي العراقي.

وفي عام (١٩٨٣) انقطعت تلك الحصة وأصبحنا نعتمد على الاستيراد، والذهب الذي نشتريه من المواطنين.

وما يعاد تجميعه من الورش والذي يستخرجونه من النهر، وذكر إن معاناتنا كبيرة ومستمرة إلى الآن، حيث كنا نواجه مضايقات من قبل دائرة "التقييس والسيطرة النوعية" ومن ناحية منح الإجازات، ومن تفتيش المصوغات من أجل الحصول على الختم، وما يستخدمون من أجهزة قديمة غير دقيقة.

حيث ارتفع رسم الختم في الوقت الحاضر للكيلو الواحد من (١٠٠) ألف دينار إلى (٢٠٠) ألف دينار والمشكلة الأخرى التي نعاني منها كصياغ، هي عدم حماية الصناعة الوطنية مثل فرض الكمرك على المنتوج المستورد.